كتابك

١١٨

د. باهور لبيب

الفن القبطى


دار المعارف

كتابك ١١٨

رئيس التحرير أنيس منصور

د. باهور لبيب

الفن القبطى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

الفن القبطى يعتبر الحلقة الثانية من السلسلة القومية الطويلة التى يتكون منها الفن المصرى ، وهى الفن الفرعونى ، والفن الإغريقى الرومانى ، والفن القبطى ، والفن الإسلامى .

وكل عصر من عصور هذه الفنون يضم آثاره مُتحفٌ من المتاحف الرئيسية ، وهى : المتحف المصرى بميدان التحرير ، والمتحف القبطى بمصر القديمة ، والمتحف الإسلامى بباب الخلق بالقاهرة .

أما المتحف الإغريقى الرومانى فشيد بالإسكندرية ، والموضوعات التى عولجت فى هذا الكتاب هى :

١ – تأثير البيئة المصرية على الفن القبطى الشعبى .

٢ – العمارة بقسميها : الدينى والدنيوى .

٣ – الفنون الدقيقة كالنسيج والتصوير وفن النحت .

وأقدم جزيل شكرى لدار المعارف التى أخذت على عاتقها إخراج هذا الكتاب (كتابك) ومساهمتها فى نشره فى سلسلة للفن الشعبى وللوعى القومى .

دكتور باهور لبيب

مدير المتحف القبطى (سابقاً)

الفن القبطى

أصل كلمة قبطى : قبل أن نتحدث عن الفن القبطى يجدر بنا أن نعرض لكلمة « قبطى » وهى كلمة عربية نسبة إلى « قبط » التى زيدت عليها ياء النسبة العربية . أما كلمة « قبط » فهى مشتقة من اللفظ اليونانى « إيجتوس » الذى أطلقه قدماء الإغريق على « مصر » ثم الرومان من بعدهم ، بعد حذف السابق « إى » واللاحق « وس » وبقيت كلمة « جبط » بالجيم المعطشة التى تنطق عادة « ق » ؛ لذلك كتبت الكلمة بها « قبطى » أى بمعنى « مصرى » ولفظ « إيجتوس » يرجع إلى الكلمة الفرعونية « حات كاوبتاح » : اسم عاصمة مصر الفرعونية منف .

ماهية الفن القبطى : كذلك يجمل بنا قبل أن نتحدث عن الفن القبطى (١) : نشأته وتطوره أن نصحح رأياً يقوم على أن الآثار القبطية هى آثار دينية مسيحية بحت ، بل زعم بعض العلماء أن الآثار القبطية بوجه عام آثار بيزنطية ، وأن الفن القبطى فى نظرهم مأخوذ عن الفن البيزنطى .

وهم يعتقدون أيضاً أن الآثار القبطية تبدأ سنة ٣٢٦ ميلادية وقت

---

(١) الصور المنتقاة لهذا الكتاب اخترتها من مجموعاتى الخاصة التى جمعتها فى حوالى عشرين عاماً بمعاونة الدكتور كراوزر ، والدكتور هرتسوج ، والدكتور كايمر والأستاذ فيكتور جرجس والأستاذ بولس فرج .

أن أصبح الدين المسيحى دينا رسمياً فى مصر . ويستمر الفن القبطى فى نظر هؤلاء العلماء حتى سنة ٦٤١ ميلادية أى وقت دخول العرب مصر .

والواقع يخالف هذا كل المخالفة لأن :

أولاً : مدلول لفظ قبطى هو نفس مدلول كلمة « مصرى » كما بينا سابقاً . وهو الاسم الذى أطلقه العرب على المصريين عامة ، إذن فهى مصرية قبل أن تكون مسيحية . وقد استعار الفن القبطى اسمه من اسم مصر الذى نشأ فيه هذا الفن .

ثانياً : خضع الفن القبطى لمؤثرات البيئة المصرية التى نشأ فيها . وهو ترجمان صادق للحياة المصرية فى تلك الفترة من الزمن وما قبلها وما بعدها – كما سنرى من الأمثلة التى سنوردها فيما بعد – أن الفن القبطى فن مصرى شعبى . دينى ودنيوى فقد رعاية الحكام الأجانب . واستظل برعاية الشعب المصرى يستوحى من أفكاره . ويعبر عن أحاسيسه المصرية ، من أرض مصر ونيلها وشمسها وقمرها . فكانت رسالة الفنان القبطى عملاً يدعو إلى الوحدة والتآلف بين الأفراد جميعهم ، إذ كانت غايته اشتراكية الأفكار .

ثالثاً : لا ننكر أن مصر تعرضت لحكم ملوك أجانب نتيجة غزوات من الفرس ، فإسكندر الأكبر والبطالمة والرومان والبيزنطيين ، إلا أن الحضارة المصرية بدأت تأخذ طابعاً جديداً بسبب وجود الأجانب فى البلاد المصرية ، فبدلاً من أن تضعف الحضارة المصرية أمام حضارات

الدول الغازية – نجد مصر هى التى كانت تؤثر فى تلك الحضارات وتعطيها طابعها المصرى لدرجة أن الحضارة الإغريقية الشهيرة صُبغت فى مصر بالصبغة المصرية ، وسُميت فيها بالذات بالحضارة الهلينستية ، وكذلك نجد فى معبد الكرنك بعض الآثار التى أقامها الملوك والحكام الأجانب ليتخذوا لأنفسهم طابع الفراعنة ويقلدوهم فى مظاهرهم وأعمالهم ، بل فى ألقابهم الدينية واستعمال لغتهم المصرية القديمة ، فرغبة شعب مصر الدائمة فى الدفاع ضد المستعمر والمعتدين أجبرت المستعمر على التودد إلى الشعب المصرى والأخذ بحضارته ، فظهر الشعب المصرى على صفحة التاريخ منذ قدوم الإسكندر الأكبر مصر سنة ٣٢٢ قبل الميلاد . حتى إذا مادخل الدين المسيحى مصر بعبادة الله الواحد حول أقباط مصر كثيراً من المعابد المصرية إلى دور لعبادة الله : ومن ذلك أنهم استخدموا مثلاً بعض مبانى معبد الكرنك ، وكذلك بعض مبانى معبد الأقصر ، ومعبد هابو – بمثابة كنائس لهم بعد أن أضافوا إليها من المبانى والرسوم الحائطية مايعطيها هذا الشكل .

رابعاً : إن الفن القبطى استمر حتى القرن العاشر الميلادى وقت أن اتضحت مميزات الفن الإسلامى ، وأصبح له كيانه الخاص ، ثم اندمج الفنّان معاً ، ونجد هذا متجلياً فى أعمال الفن القبطى حتى القرن التاسع عشر ، وهذا آخر فترة تنتمى إليها الأعمال ذات الصبغة الأثرية .

وبما أن اتجاه الفن القبطى مرجعه فحص الآثار القبطية من الناحية

العلمية والفنية والثقافية – فسأتحدث عما تكشف لنا فى هذا الصدد من دراستنا للآثار القبطية التى فى متاحفنا المصرية أو الأوربية أو الأمريكية أو فى أماكنها الأثرية حالياً .

والفن القبطى ننظر له من عدة نواح :

أولا : فن العمارة وطرق زخرفتها :

ثانياً : الفنون الدقيقة كفن النسيج ، التصوير على الحوائط والأيقونات ، فن الكتابة ، فن الصباغة ، الحفر على الخشب والتطعيم . فن النحت .

أولاً : فن العمارة :

وفن العمارة من حيث الغرض ينقسم قسمين رئيسيين :

(ا) فن معمارى فى خدمة الدين كفن بناء الكنائس والأديرة ومقابر القديسين ومايلازمها من زخارف فنية .

(ب) فن معمارى يستعمل فى خدمة الحياة الدنيوية ، ويشمل العمارة السكنية : كالمنازل وزخرفتها التى تخدم الأغراض الدنيوية ، وتخطيط المدن ومصانع الهدايا التذكارية .

١ – فن العمارة الدينى :

فأما عن فن العمارة الدينى فيدلنا التاريخ على أن الفن القبطى

المسيحى استمد أسسه من الفن المصرى القديم ، فورث الفنان القبطى عن آبائه وأجداده مهارة فنية فى حفر النبات والطيور والحيوان والأشكال الهندسية (صورة رقم ١) على الأحجار ، كما ورث الفنان القبطى أيضاً زخرفة الحوائط والأفاريز بالرسوم الملونة : فعلى سبيل المثال زخرف الأقباط عمائرهم بزخارف نباتية مستمدة من مظاهر الطبيعة والبيئة المصرية حيث يظهر ذلك جلياً فى مجموعة تيجان أعمدة دير القديس أرميا التى كانت بسقارة والمعروضة حالياً فى المتحف القبطى بمصر القديمة ، والتى يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادى ، وفيها يظهر جلياً العنصر الزخرفى المعمارى المستمد من شجرة العنب (صورة رقم ٢) ورقها وثمارها ، وكذلك من سعف النخيل ، الأمر الذى كان منتشراً فى الفن المصرى القديم ، ولكنه ازدهر فى الفن القبطى باعتباره عنصراً دينياً مسيحياً أيضاً .

وقد كان نبوغ القبط فى بناء الكنائس[١] والأديرة بالغا منتهى الروعة والجمال ، تشهد بذلك بقايا كنيسة أبو مينا بالصحراء الغربية والتى كشفها كولمان سنة ١٩٠٥ وتعتبر من أقدم الكنائس المصرية .

والكنيسة عبارة عن قاعدة أعمدة على شكل مستطيل تكون صحن

---

(١) أسست أول كنيسة فى مصر على ساحل الإسكندرية حوالى عام ٦٨ ميلادية ودفن فيها القديس مرقس بعد استشهاده ، إلا أن هذه الكنيسة الأولى أزيلت فى عهد الإمبراطور الوثنى (قلديانوس) .

الكنيسة ، وتفصل جناحيها صفوفٌ من الأعمدة الرخامية ، ويقوم الهيكل فى طرفها الشرق أى نظام البازيلكا ، وهذا النظام ليس بجديد أو استحدثه الأقباط ، بل هو تصميم مصرى قديم بدأه (الملك تحتمس الثالث) – (أحد ملوك مصر فى وحدة مصر الثالثة أو العصر المصطلح عليه بعصر الدولة الحديثة) – فى تشييد قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك ، وقد كان لبعثة المتحف القبطى الفخر بأن قامت فى السنوات الماضية باكتشاف جزء كبير من مدينة أبو مينا هذه بالصحراء الغربية .

• • •

وأما عن فن النحت فنجد أن تاج عمود تظهر فيها عوامل التقاليد الدنيوى وتسجيل للحياة اليومية فى العصر القبطى ؛ إذ نبصر تيجان أعمدة من الحجر بجدولة على شكل السلال (صورة ٣) ، وأتقن الفنان صنعها ، وهى تشبه إلى حد قريب تلك التى مازالت متداولة حتى اليوم والمصنوعة من القش ، أو تيجان أعمدة بشكل زخرفى لأوراق العنب أو كرم العنب وعناقيده ، وقد أتقن الفنان القبطى رسم نبات سعف النخيل على تيجان الأعمدة ، ورسم أحياناً تيجان الأعمدة باللون الأخضر وهو اللون الطبيعى للنبات .

وكان القبطى حريصاً على التعبير عن الظواهر اليومية الطبيعية كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار ، فقد عبر عنها تعبيراً ناطقاً يكاد يسمعنا حفيفها (صورة رقم ٤) .

وقد اهتم الأقباط بتزيين عمائرهم بالرسوم الملونة : فمثلاً قبلة من باويط نجد عليها رسماً يمثل السيد المسيح يجلس ويحمل بيسراه الكتاب المقدس ويومئ بإشارة البركة بيمناه ، ويحيط بعرشه الحيوانات الأربعة التى ترمز إلى الرسل الأربعة : فالأول رأس الأسد ويرمز إلى الرسول مرقس ، والثانى رأس الثور ويرمز إلى الرسول لوقا ، والثالث رأس النسر ويرمز إلى القديس يوحنا ، ثم وجه إنسان ويرمز إلى الرسول متى ، وعلى اليمين واليسار رئيسا الملائكة ميخائيل وجبرائيل ينحنيان إجلالاً وخشوعاً أمام المسيح وهو على مركبته فى رحلته السماوية والتى تشبه رحلة الإله (رع) عند قدماء المصريين فى مراكب الشمس ، وتحت هذا المنظر صورة تمثل السيدة العذراء تحمل المسيح وهو طفل ، وحولها ليس فقط الاثنا عشر رسولاً مرسومين فى صفين ، وفى كل من نهاية الصف نرى قديساً محليًّا ، بل نجد أن المصرى المسيحى وقد تغلبت عليه طبيعته المصرية أبى إلا أن يمصر المسيحية وأن يمصر الحواريين ، فأضاف إليهما اثنين مصريين : ويرجع تاريخ هذه القبلة إلى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وقد شيد الأقباط الأوائل عدداً من الكنائس فى محافظات مصر المختلفة مثل : كنيسة العذراء فى تل إتريب ، وكنيسة دندرة ، وكنيسة القديس أبولو فى باويط ؛ كذلك شيد الأقباط عدداً من الكنائس فى منطقة مصر القديمة ؛ كما أقيمت كنائس كثيرة فى الأديرة المختلفة مثل : كنيسة دير الأنبا أرميا بسقارة ، وكنيسة جبل الطير بالمنيا .

وكنيسة الدير الأبيض والدير الأحمر بسوهاج والدير المحرق بأسيوط . وكنائس أديرة وادى النطرون ، والكنائس التى فى دير الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا بالقرب من البحر الأحمر بالصحراء الشرقية .

٢ – فن معمارى فى خدمة الحياة الدنيوية :

هذا الفن المعمارى الذى يستعمل فى خدمة الحياة الدنيوية يشمل العمارة السكنية والمنازل ومبانيها وزخرفتها التى تخدم الأغراض الدنيوية وتخطيط المدن ومصانع الهدايا التذكارية وما يلازمها من زخارف .

وتخطيط المدن القبطية لم يختلف كثيراً فى مظهره الخارجى وأى بلد مصرى قديم : فكانت تنقسم المدن إلى شوارع وكل شارع يتألف من منازل مبنية من اللبن فى الوجه القبلى كمدينة هابو غرب الأقصر ، أو من الطوب الأحمر أو الحجر الجيرى فى الوجه البحرى ، كما هو الحال فى مدينة أبو مينا بالصحراء الغربية حيث يكثر هبوط الأمطار .

ومن أهم زخارف هذه المنازل مانجده من نحت على الحجر فى منزل أحد التجار بمنظر فيل هندى وليس إفريقيًّا على نافذة منزل التاجر ، مما يدل على أن هذا التاجر له صلة بالهند فى تجارته .

وفى منزل ثان نجد نحتاً على الحجر لمنظر الغزال على النافذة .

وفى منزل ثالث نجد منظر إفريز من الحجر الجيرى يمثل منظر جنى وتجميع محصول العنب : فمن اليسار نرى شابًّا يضرب على المزمار ، وثانيا

يدق على الدف ، ثم شابًّا يجنى محصول العنب وممسكاً بيده سلة ، ثم بعد ذلك يضع العنب فى السلة ، ثم يحملها ويضعها فوق ظهر جمل حيث يقوده خارج الكرم : ويرجع تاريخ هذا الإفريز إلى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس الميلادى (صورة رقم ٥) .

وفى منزل رابع نجد منظر كورنيش من الحجر الجيرى منقوش بالبارز ، ويرجع إلى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الميلادى ، ويمثل صياداً يركب قارباً مقوساً وسط الأحراج على نظام قوارب الصيد الفرعونية ، ويصطاد سمكة من نهر النيل الخالد ، ويعلوه منظر بطتين وسط اللوتس ، وقد اتبع الفنان فى هذا النقش الطريقة الفرعونية فى أنه يرتب المناظر بعضها فوق بعض على أن الواحد منها خلف الآخر .

وفى منزل خامس نجد منظر صيد الغزال على أحد جدران المنزل (صورة رقم ٦) وهو محفور على الحجر الجيرى .

وفى منزل سادس نجد منظر نيل مصر الخالد منقوشاً على خشب . وفيه تسير المراكب المحملة بالأوانى الفخارية ، ويظهر فى النقش التمساح والأسماك ويرجع تاريخ هذا النقش إلى القرن الرابع الميلادى (صورة رقم ٧) .

وفى منزل سابع نجد نيل مصر محفوراً على الخشب ، ونرى فيه نبات اللوتس والتمساح ، والنيل بلاشك قوام حياة مصر وقلبها النابض فى كل عصورها قديماً وحديثاً .

وفى منزل ثامن نجد سقف المنزل مرسوماً بالألوان على الخشب ، ويمثل رحلات صاحبه المختلفة فى البحر المتوسط .

ومن الطريف أن مفاتيح أغلب أبواب هذه البيوت مصنوعة من الخشب ، كما هو الحال فى الريف المصرى حتى الآن ، وبالمتاحف المختلفة ولاسيما فى المتحف القبطى مجموعات من هذه المفاتيح .

فن النسيج

وإلى جانب الفن المعمارى اشتهرت مصر منذ تاريخها القديم بتفوق أهلها فى عدة صناعات ، لأن النيل كفل لسكان واديه وسائل الحضارة وقيام الصناعات التى ترتبت على وجود الزراعة كالنسيج ، فهو من الصناعات الهامة التى استمرت بل ازدهرت فى العصر القبطى على اختلاف أنواعها وخاصة الكتانية والصوفية والحريرية .

وكانت أهم مراكز هذه الصناعة الإسكندرية وتانيس ودمياط فى الوجه البحرى ، فضلاً على البهنسا والفيوم والأشمونين فى مصر الوسطى وأسيوط وأخميم فى الوجه القبلى .

وقد عثر رجال الآثار فى هذه البلاد وغيرها من المناطق الأثرية فى مصر على كثير من المنسوجات التى تدل على ذوق صانعها الرفيع موزعة حاليًا فى أغلب متاحف العالم ، وخاصة فى المتاحف المصرية . وأهمها فى المتحف القبطى بمصر القديمة .

وعلى سبيل المثال :

أولاً : نجد فى متحف بوشكين بموسكو مجموعة من هذه المنسوجات ، من بينها قطعة من النسيج متعددة الألوان تحت

رقم Jnv 1, 10 5822 وترجع إلى القرن الرابع الميلادى ومنشورة فى كتاب معرض الفن القبطى الدولى الذى أقيم فى بلدة فيلا هيجل بألمانيا الغربية سنة ٦٣ ، وتمثل النيل فى شكل أب ذى لحية كبيرة تحيط به فى شكل دائرة الزهور وأوراق النباتات المختلفة . وهذا يذكرنا بتكريم النيل فى عهد الفراعنة ورفعه إلى مرتبة الآلهة وإطلاقهم عليه الاسم « حابى » ، إذ أنه صاحب الفضل الأول فى حفظ حياتهم ، وهذا ما أوحى إلى هيكاتية الجغرافى اليونانى كلمته المشهورة « مصر هبة النيل » ، فنقلها عنه المؤرخ هيرودوت ، وقد صدقا فى ذلك ؛ لأن كيان مصر الاقتصادى قائم قديماً وحديثاً على أساس الرى والزراعة .

ثانياً : مجموعة من نسيج القباطى بالمتحف القبطى ، ومنها القطعة التى تمثل المنظر الشعبى الذى مازال معروفاً حتى اليوم وهو رقص الخيل .

ثالثاً : مجموعة منسوجات بمتحف اللوفر بباريس .

رابعاً : مجموعات المتاحف الألمانية المختلفة من النسيج القبطى بمجموعة متحف دسلدورف بألمانيا الغربية .

خامساً : مجموعة اليابان التى نشرت فى عدة أجزاء باللغتين اليابانية والإنجليزية ، وطبعت فى هذه الأجزاء لوحات ملونة لبعض قطع النسيج ومزخرفة بأشكال هندسية أو آدمية ببساطة ، وما البساطة إلا نوع من الجمال .

الرسم والتصوير

أتقن الفنان القبطى فنون الرسم والتصوير ، وبدأ أعماله فى هذا المجال باستعمال الطرق والوسائل التكنيكية التى كانت شائعة فى مصر منذ أقدم العصور ، وهى أساليب التصوير الحائطى المعروفة بفن « الفريسك » ، وكانت الجدران تعد إعداداً فنياً خاصًا لإمكان الرسم عليها بهذه الطريقة ، فكانت تُسطح ثم تغطى بطبقة خاصة من ملاط أملس ناعم من عجينة من الجص أو من الطين يرسم فوقها المنظر الملون بألوان مائية .

ولقد أخذت الرسوم الحائطية شكلين أساسيين :

١ - الرسوم على الشرقيات أو القبل (الحنيات) مثل رسوم الشرقية الشهيرة باسم شرقية باويط بالمتحف القبطى والمنقولة من كنيسة ببلدة باويط بالقرب من ديروط بالصعيد ، وهى من الطمى ومطلية بالجير وملونة ، ورسوم هذه الشرقية تمثل السيدة العذراء تحمل المسيح الطفل يحيط بها من الجانبين اثنا عشر من حواريى السيد المسيح . وأضاف الفنان القبطى إليهم فى نهاية كل جانب قديساً من القديسين المصريين : أى أن الفنان القبطى المسيحى - وقد تغلبت عليه قوميته - أبى إلا أن يمصّر المسيحية والحواريين ، فأضاف إليهم اثنين من المصريين كرست الكنيسة باسميهما ، ويحمل جميع الرسل الإنجيل فى أيديهم ، وأسماؤهم مدونة فوق رءوسهم باللغة القبطية .

رقم Inv 1, 10 5822، وترجع إلى القرن الرابع الميلادى ومنشورة فى كتاب معرض الفن القبطى الدولى الذى أقيم فى بلدة فيلا هيجل بألمانيا الغربية سنة ٦٣ ، وتمثل النيل فى شكل أب ذى لحية كبيرة تحيط به فى شكل دائرة الزهور وأوراق النباتات المختلفة . وهذا يذكرنا بتكريم النيل فى عهد الفراعنة ورفعه إلى مرتبة الآلهة وإطلاقهم عليه الاسم «حابى» ؛ إذ أنه صاحب الفضل الأول فى حفظ حياتهم . وهذا ما أوحى إلى هيكاتية الجغرافى اليونانى كلمته المشهورة «مصر هبة النيل» ، فنقلها عنه المؤرخ هيرودوت ، وقد صدقا فى ذلك ، لأن كيان مصر الاقتصادى قائم قديماً وحديثاً على أساس الرى والزراعة .

ثانياً : مجموعة من نسيج القباطى بالمتحف القبطى ، ومنها القطعة التى تمثل المنظر الشعبى الذى مازال معروفاً حتى اليوم وهو رقص الخيل .

ثالثاً : مجموعة منسوجات بمتحف اللوفر بباريس .

رابعاً : مجموعات المتاحف الألمانية المختلفة من النسيج القبطى بمجموعة متحف دسلدورف بألمانيا الغربية .

خامساً : مجموعة اليابان التى نشرت فى عدة أجزاء باللغتين اليابانية والإنجليزية ، وطبعت فى هذه الأجزاء لوحات ملونة لبعض قطع النسيج ومزخرفة بأشكال هندسية أو آدمية ببساطة ، وما البساطة إلا نوع من الجمال .

الرسم والتصوير

أتقن الفنان القبطى فنون الرسم والتصوير ، وبدأ أعماله فى هذا المجال باستعمال الطرق والوسائل التكنيكية التى كانت شائعة فى مصر منذ أقدم العصور ، وهى أساليب التصوير الحائطى المعروفة بفن «الفريسك» ، وكانت الجدران تعد إعداداً فنياً خاصاً لإمكان الرسم عليها بهذه الطريقة ، فكانت تُسطح ثم تغطى بطبقة خاصة من ملاط أملس ناعم من عجينة من الجص أو من الطين يرسم فوقها المنظر الملون بألوان مائية .

ولقد أخذت الرسوم الحائطية شكلين أساسيين :

١ - الرسوم على الشرقيات أو القبل (الحنيات) مثل رسوم الشرقية الشهيرة باسم شرقية باويط بالمتحف القبطى والمنقولة من كنيسة ببلدة باويط بالقرب من ديروط بالصعيد ، وهى من الطمى ومطلية بالجير وملونة ، ورسوم هذه الشرقية تمثل السيدة العذراء تحمل المسيح الطفل يحيط بهما من الجانبين اثنا عشر من حواريى السيد المسيح . وأضاف الفنان القبطى إليهم فى نهاية كل جانب قديساً من القديسين المصريين : أى أن الفنان القبطى المسيحى - وقد تغلبت عليه قوميته - أبى إلا أن يمصّر المسيحية والحواريين ، فأضاف إليهم اثنين من المصريين كرست الكنيسة باسميهما ، ويحمل جميع الرسل الإنجيل فى أيديهم ، وأسماؤهم مدونة فوق رءوسهم باللغة القبطية .

أما الجزء العلوى من الشرقية فصور فيه الفنان السيد المسيح فى عجلته النارية تحيط به المخلوقات الأربعة رموز الإنجيليين الأربعة : فالإنسان يرمز إلى الرسول متى ؛ والأسد يرمز إلى القديس مرقس ، والنسر يرمز إلى القديس يوحنا ، والعجل يرمز إلى الرسول لوقا وعلى اليمين واليسار رئيسا الملائكة ميخائيل وجبرائيل ينحنيان إجلالاً وخشوعاً أمام السيد المسيح وهو على مركبته فى رحلته السماوية والتى تشبه إلى حد كبير رحلة الإله (رع) فى مراكب الشمس كما تقدم .

ولقد اتبع الفنان القبطى فى تصوير هذا المنظر التماثل الزخرفى فى ذروته ، كما يتسم المنظر بالبساطة والشعبية المألوفين فى الفن القبطى : ونجد وجوه الشخصيات وقد خلت من الملامح والتعابير مما جعلها تتشابه فى معظمها ، مما حدا بعلماء الآثار القبطية إلى تسمية الفن القبطى بفن الوجوه المتشابهة .

كذلك نجد شرقية تمثل السيدة العذراء وهى تخرج ثديها لترضع المسيح . وهذه الفكرة مأخوذةَ عن الفن المصرى القديم حينما نشاهد المعبودة إيزيس وهى تخرج ثديها لإرضاع ابنها حورس ، وهذا يدلنا على أن الفن القبطى برغم أنه امتداد للعصر الفرعونى القديم فهو زيادة على ذلك فن واقعى ، لأنه لاغرابة إذا أرضعت الأم ولدها ، ومازلنا حتى اليوم نشاهد الأمهات يرضعن أولادهن فى حياتنا الشعبية سواء فى الشارع أو فى الترام أو فى القطار .

ومن مصر انتقلت فكرة إرضاع العذراء للمسيح Maria Lactens إلى إيطاليا ، ومنها إلى ألمانيا وبلاد أخرى .

٢ – الرسوم على الجدران مثل رسوم قصة آدم وحواء على جدار بالمتحف القبطى حاليًّا ومنقول من كنيسة دير أم البريجات بالفيوم حيث مثل آدم وحواء مرتين : مرة وهما فى الجنة يأكلان من الفاكهة المحرمة ومرة أخرى وهما خارج الجنة يستتران بأوراق الأشجار ، ويشير كل منهما إلى الآخر ، مما يدل على أن الفن القبطى فن واقعى : بمعنى أنه يمثل الواقع الذى يحدث بين الناس فى الحياة اليومية بأجلى مظاهره .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المجال أن الحملات العلمية التى أسهمت فى عمليات إنقاذ آثار منطقة النوبة اكتشفت مجموعة غنية من الرسوم الحائطية القبطية التى كانت تعلو بعض الآثار الفرعونية واليونانية والرومانية ، واستطاعت بالطرق الفنية نقلها إلى المتحف القبطى ، وبذلك أصبحت تشكل هذه المجموعة قسماً هامًّا خاصًّا بها فى المتحف ، وخصوصاً أنها تمثل مناظر وشخصيات تنفرد بها عن باقى الرسوم الحائطية الأخرى ، وعلى سبيل المثال اللوحة التى تمثل ميلاد السيد المسيح .

كذلك وُجِدَتْ مجموعةُ من الفرسك فى بلاد النوبة السودانية كبلدة فرس : بعضها معروضٌ بمتحف الخرطوم وبعضها الآخر بمتحف وارسو ببولندا .

ولا يفوتنا أن ننوه بفن الرسم وتصوير الوجوه القبطية بالألوان سواء

للرجال أو النساء أو الأطفال فى التقاليد الجنائزية التى كانت توضع على وجوه المومياء فى العصر القبطى المبكر لأفراد الشعب ، وهى عادة جرت فى عهد قدماء المصريين .

ومن أهم هذه الرسوم للوجوه ما عثر عليه بمقابر الفيوم وموزعة حاليًا فى متاحف كثيرة بمصر والخارج .

ولم يخل الفن المصرى فى عهوده المختلفة من روح المرح ؛ ذلك لأن المصرى بطبيعته مرح يحب الدعابة ، وفى العصر القبطى نجد عدة رسوم تبرز هذه الروح مثلاً : منظر رجل تسلق نخلة لجمع البلح ، ولكنه وقع بدون أن يحمل أى بلحة !

أو تصوير حائطى يمثل منظراً ، وقد وقف الفئران فيه أمام القط . تطلب الهدنة ، وقد رفع الفئران علماً أبيض هو الذى يعتبر حتى اليوم علم الهدنة والأمان .

الأيقونات

وقد ظل الأقباط يمارسون فن التصوير بطريقة الرسوم الحائطية على نطاق واسع حتى القرن الحادى عشر الميلادى حين وجدوا أنه عندما تهشم جدران المبانى يكون مصير هذه الرسوم إلى الزوال ، فلجئوا إلى طريقة أخرى يصورون بها نواحى عقائدهم الدينية ومشاعرهم الروحية بحيث تكون أكثر ثباتاً ، وتكون الصور سهلة النقل يمكن تغيير مكانها ، وهكذا انتشرت طريقة الرسم على اللوحات الخشبية التى تعرف بالأيقونات .

وأيقونة كلمة يونانية تعنى صورة ، ثم صارت فيما بعد اصطلاحاً يطلق فى العصر القبطى على اللوحات الخشبية التى تحوى صوراً بالألوان تمثل لنا عادة قديسين أو شهداء أو قديسات أو الملائكة أو الحواريين أو مناظر دينية من الكتاب المقدس لمجىء العائلة المقدسة إلى مصر أو ميلاد السيد المسيح أو التاريخية ، وأحياناً صور الفنان القبطى حياة السيد المسيح من البشارة إلى الصعود ، ونجد هذه الأيقونات غالباً معلقة على الجدران أو على الحواجز الخشبية Konastass فى الكنائس والأديرة .

ويحدثنا الرحالة فانسليب أنه كانت بمدينة الإسكندرية لوحة عليها صورة الملاك ميخائيل رسمها القديس لوقا الإنجيلى ، فإذا صح ذلك

يستنتج أن فن التصوير على اللوحات كان معروفاً منذ القرن الأول للميلاد .

وبمتحف اللوفر أيقونة تمثل السيد المسيح وبجواره القديس مينا وهى من القرن الرابع الميلادى .

وبكنيسة حارة زويلة نجد أيقونة للبشارة ، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادى .

وبكنيسة المعلقة نجد أيقونات كثيرة منها : أيقونة القديس مار مرقص ، وأيقونة للسيدة العذراء تدل على مهارة الفنان القبطى .

كذلك نجد بجميع الكنائس الأثرية والأديرة المختلفة المنتشرة فى محافظات جمهورية مصر مئات من الأيقونات ، وكذلك فى كنيسة الأقباط الأرثوذكس بالقدس ، وعادة فى كل كنيسة أو دير نجد أيقونات تمثل السيدة العذراء أو السيد المسيح أو الملائكة ، وكذلك أيقونة أو أكثر يرسم عليها القديس صاحب الدير مثل أيقونات الأنبا بولا فى ديره بقرب البحر الأحمر ، ومثل أيقونات الأنبا أنطونيوس بديره فى الصحراء الشرقية ، أو أيقونات القديس مقار بديره فى وادى النطرون ، وهكذا .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة للتصوير على الأيقونات : فمثلاً نجد رسم الملاك ميخائيل وفى يده ميزان كأنه وسيلة رمزية توزن به أعمال البشر ! ولا شك أن هذه الفكرة تعيد إلى أذهاننا فكرة وزن قلوب الناس فى المعتقدات المصرية القديمة .

كذلك نجد على كثير من الأيقونات رسم مارجرجس يطعن التنين ، وهذا يشبه تمام الشبه النقش الذى بمتحف اللوفر ، ويمثل حورس ممتطياً جواداً يدوس (ست) إله الشر تحت أقدام جواده !

مشاهير الفنانين من المصورين :

نستطيع التعرف على بعض مشاهير الفنانين من المصورين فى العصر القبطى : فمثلاً المصوران إبراهيم الناسخ ويوحنا الأرمنى كانا متخصصين فى فن تصوير اللوحات ، ومن الطريف أن هذين الفنانين تضامنا معاً فى تصوير بعض اللوحات ، ووقعا على كل منها باسميهما ، وفى هذه الحالة كان اسم الفنان إبراهيم يسبق اسم الفنان يوحنا ، كما أن كلا منهما استقل فى تصوير بعض اللوحات ووقع عليها وحده .

وقد عاش هذان المصوران فى القرن الثامن عشر الميلادى .

ومن الطريف أن نجد الاتجاهات الفنية فى اللوحات الفنية التى قاما برسمها هى نفس المؤثرات الفنية التى وجهت الفنان المصرى فى العصر القبطى عموماً وهى المصرية البحت .

وليس هذا بغريب على فنان مصرى الأصل مثل إبراهيم الناسخ ، إلا أنه مما يسترعى النظر أن يوحنا مصور أرمنى الأصل ، ولكنه اقتفى أثر الفنانين المصريين إلى حد بعيد ، ويرجع ذلك إلى أنه عاش فى مصر مدة طويلة .

كما أن الأقباط رسموا أيضاً طيوراً وأسماكاً وحيوانات مصرية على لوحات مشابهة للوحات الأيقونات بشكل ملون بديع وجد أغلبها الدكتور كايمر فى حفائره بمصر الوسطى ومعروض عدد منها فى المتحف القبطى . وقد استعمل الأقباط الفرشاة والألوان التى كان يستعملها قدماء المصريين .

روح المرح والتصوير الهزلى :

ولم يخل الفن المصرى فى عهوده المختلفة من روح المرح ؛ ذلك لأن المصرى بطبيعته مرح محب للدعابة ، وفى العصر القبطى نجد عدة رسوم تبرز هذه الروح .

فمثلاً نجد منظر رجل تسلق نخلة لجمع البلح ، ولكنه وقع من على النخلة بدون أن يحمل أى بلحة (وهذا يذكرنا بالمثل البلدى حبّ ولا طالشى) .

كذلك نجد تصويراً حائطيًّا يمثل منظر وقوف الفئران أمام القط تطلب الهدنة ، وقد وجد هذا المنظر ضمن الآثار التى وجدت فى بلدة بلويط . ومن الطريف أن أعضاء وفد الفيران رفعوا علماً أبيض اللون هو الذى يعتبر حتى اليوم علم الهدنة والأمان كما تقدم .

كما قبض آخر على قنينة بها نبيذ على الأرجح .

فن الكتابة
والمخطوطات وزخرفتها

يتم صنع المخطوط فى العصر القبطى بتوافر وسائل ثلاث :

أولاً : المادة التى تكتب عليها وهو :

(ا) **الورق** : وكان المصريون منذ أقدم عصورهم يصنعون الورق من نبات البردى ، فكانت مصر بذلك أسبق البلاد التى قامت بصنعه من البردى ، وكانت تصدره إلى أنحاء العالم القديم كافة . وكان على شكل لفائف (قراطيس) من البردى ، ثم تطورت صناعة البردى من لفائف إلى برديات فى شكل كتاب ذى صفحات فى العصر القبطى . وكان هذا أول تطور فى الحضارة لفن الكتابة .

وبعد القرن الثالث عشر صنع الورق من الكتان .

(ب) **الرق** : ابتداء من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر كان يستعمل الرق ويصنع من جلد الماعز .

(جـ) اعتاد القبطى أيضاً الكتابة على أشياء أخرى : كالخشب والحجر والشقف والقماش والعظم ، والحفر على المعدن أيضاً .

ثانياً : المادة التى يكتب بها :

المداد : وكان لونه أسود أوأصفر أو أزرق أو أخضر أو أحمر .

ثالثاً : ثم الأداة التى كانت تستعمل فى الكتابة ، وهو القلم وكان يصنع من الغاب ، ولاتزال هذه الأقلام مستعملة الآن ببعض القرى الشعبية فى الكتابة .

ومع التطور الزمنى استعملت بعض الأدوات المعدنية اللازمة للكتابة كالمحابر ، ومقلمة من الفضة ذات الزخرفة الجميلة .

المخطوطات :

ومن أهم ماخلفه لنا العصر القبطى المخطوطات ، وكتبت هذه المخطوطات بالحروف القبطية ، والحروف القبطية مكتوبة بالأبجدية اليونانية[١] ، والتى يرجع بالكثير منها إلى المصرية القديمة ، وسبعة حروف اشتقت من الديموطيقية ، وهذا لم يخرج اللغة القبطية من مصريتها ، لأنه تعديل مصرى متطور ، وهذا يذكرنا باللغة التركية فى حالتها الأولى ، وهى كتابتها بالحروف العربية ، وفى حالتها الراهنة ، وهى كتابتها بالحروف اللاتينية ولم يمنع ذلك من إطلاق اسم التركية عليها .

وأقدم ماوصلنا من المخطوطات القبطية يرجع إلى القرن الثالث الميلادى منها الدينى ، ومنها مايتصل بالفلك والطب والسحر والضرائب .

(١) اللغة اليونانية كانت فى ذلك الوقت لغة العلم والمعلمين والمتعلمين وقت أن كان زمام مصر فى يد الإغريق ثم الرومان .

ولعل أهمَّ ما وصلنا من هذه المخطوطات أوراق بردية فى شكل كتاب وتتناول البحث فى فلسفة الغنوسطية أو فلسفة العارفين بالله ، ومعروفة ببرديات نجع حمادى ، وترجع إلى منتصف القرن الرابع .

وفلسفة العارفين بالله التى تقوم على أساس أن الإنسان يستطيع أن يكون صالحاً عن طريق المعرفة ، وليس بمجرد الإيمان المطلق .

وقد تألفت لجنة دولية من هيئة الآثار ومنظمة اليونسكو لدراسة نصوص هذه الفلسفة ونشرها وترجمتها .

وكان معروفاً قبل ترجمة نصوص برديات نجع حمادى أنها فلسفة يونانية ، ولكن أكدت برديات نجع حمادى التى يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الرابع الميلادى أن هذه الفلسفة مأخوذة من مصر وأنها نشأت فى مصر .

ومن أهم المخطوطات القبطية أيضاً تقليد باللهجة البحيرية[١] من اللغة القبطية وجدته البعثة الإنجليزية بلندن فى حفائر قصر إبريم فى النوبة ، وترجمة لهذا المخطوط باللغة العربية وهو عبارة عن رسامة الأسقف ذيماتوس على يد بابا الإسكندرية البطريرك غبريال على بلدتى فرس وإبريم بالنوبة ومؤرخ سنة ١٠٨٨ للشهداء : أى سنة ١٣٧٢ ميلادية .

(١) لأن اللهجة البحيرية كانت اللهجة الرسمية لبابا الإسكندرية ، إذ للغة القبطية أكثر من لهجة ! فإلى جانب البحيرية هناك لهجة صعيدية ، ولهجة إخميمية ، ولهجة قومية ، وهكذا .

ثم يتقدم فن الكتابة للأقباط فيزينون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية .

وقد زاد التعاون بين الفن القبطى والفن الإسلامى ازدياداً وثيقاً ، حتى إن أغلب المخطوطات القبطية بعد القرن العاشر الميلادى بل أغلب الآثار القبطية — لم تصبح الكتابة عليها بالخط القبطى فقط ، وإنما دخلتها اللغة العربية بخطوطها المختلفة ، كما نراه فى مكتبات أديرة وادى النطرون ، وفى مكتبة الدار البطريركية ، وفى مكتبة المتحف القبطى .

ومن الطريف أن نجد بعض المخطوطات العربية مكتوبة بحروف قبطية استخدمها الأقباط ليتعلموا اللغة العربية .

فن تجليد المخطوطات :

وبرع الأقباط فى فن تجليد المخطوطات ، فإن ماوصلنا من غلافات الكتب عليها زخارف تعد من أقدم ماعرفه العالم فى فن التجليد ، ولعل أقدمها ما كشف عنه فى مخطوطات نجع حمادى من غلاف بالجلد له لسان لإخراج المخطوط منه ، وهو الذى حفظت به البرديات الغنسطية السالفة الذكر .

اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية وبالفن القبطى :

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية والعربية ، وإنما كتب جزء كبير

منها باليونانية ، ولهذا كان للأقباط فضل على الأدب اليونانى ، إذ ضموا إليه ذخيرة جديدة قبطية روحاً وإن كانت تلبس الملابس اليونانية .

واهتم العالم اهتماماً كبيراً بالمخطوطات القبطية سواء منها المكتوبة أصلاً بالقبطية أو المترجمة إليها بالعربية واليونانية .

كما اهتم العالم بالفن القبطى ، فشهدت القاهرة فى الفترة من ٩ ديسمبر ١٩٧٧ حتى ١٧ ديسمبر ١٩٧٧ أول مؤتمر عالمى تناول بالبحث والمناقشة ليس فقط المخطوطات والفن القبطى ، وإنما تناول جوانب متعددة من الحضارة المصرية فى العصر القبطى من لغة وأدب وفلسفة ودين وفن وآثار وموسيقى وقانون واجتماع .

وكان قد أقيم معرض سنة ١٩٦٣ فى فيلا هيجل اشترك فيه نحو سبع عشرة دولة منها مصر ، وانتقل إلى فرنسا والنمسا ، فكان هذا أكبر دعاية للفن القبطى لدرجة أن عدة صحف كتبت أنه أكبر حدث ثقافى فى صيف ١٩٦٣ .

الصياغة وزخرفة المعادن

كذلك ظل الفن القبطى بطابعه الأصيل فى التحف المصنوعة من المعادن المختلفة والتى عليها عناصر زخرفة متنوعة تتألف من أشكال آدميين ، وعلى شكل حيوانى أو زخرفة نباتية :

فى مصر عُرفت المعادن منذ أقدم العصور ، وعرف استعمالها وصهرها وزخرفتها .

ومن المعادن التى استعملها المصرى فى كل العصور معدن النحاس الذى كان يجلب من شبه جزيرة سينا ، أما البرونز فكان يحصل عليه بخلط النحاس والقصدير ، كما أن المصريين كانوا يستغِلّون مناجم الذهب بمصر وبالنوبة .

وقد صنع الفنان القبطى من النحاس أوانى مختلفة الأشكال ، كما صنع من البرونز أدوات كثيرة كالأوانى وتماثيل صغيرة : كلاعب المزمار أو تماثيل آدمية صغيرة أو حيوانية كالحصان ، وفى الاستعمال الدينى كالمباخر وأدوات زينة المرأة كالمرايا المصنوعة من البرونز المصقول صقلاً جيداً بدرجة أنه يعكس المرئيات .

وكان يحفظ بعض هذه المرايا فى علب خاصة مما وجد فى بعض المقابر التى ترجع إلى العصر القبطى . وبالمتحف القبطى علبة من هذا النوع وعليها رسم سيدة ممسكة بمرآة لتجميل وجهها .

وفى الاستعمال الدينى نجد مبخرة من البرونز مثل المبخرة التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى ، ونقش عليها حياة السيد المسيح منذ البشارة حتى صعوده إلى السماء .

أما الذهب والفضة فقد استخدما كذلك فى العصر القبطى : فللاستعمال الدينى نجد صلباناً من الذهب أو الفضة وأغطية للإنجيل من الفضة عليها زخارف نباتية جميلة ، وفى الاستخدام الدنيوى نجد أساور من الذهب أو الفضة ، كما سنتحدث عنه عند الكلام عن أدوات زينة المرأة .

أما الحديد فقد استعمل فى حالات قليلة مثلاً : وجد الأستاذ بلاملى فى حفائره فى قصر إبريم بالنوبة صليباً من الحديد كان يحمله مطران منطقة فرس وإبريم بالنوبة ، ويرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر الميلادى .

أدوات زينة المرأة :

من الخطأ أن يتصور المرء أن المصريين الأقباط لم يحفلوا بالعناية بجمال المرأة وتزيينها .

والجمال فى المرأة القبطية ينقسم قسمين أساسيين :

١ – الجمال الحسى ، وهو جمال الوجه والبدن ، أو بعبارة أخرى – الجمال الجسدى .

٢ – الجمال المعنوى ، وهو جمال الروح والعقل ، أو الجمال الروحى .

وكل منهما يبعث فى نفس الرجل الإعجاب والاستحسان : فالأول طريقه الحواس والآخر طريقه الشعور بالباطن .

وموضوع هذا الكتاب يتعلق بالقسم الأول ؛ وهو الجمال الحسى . وكان يرتكز على أربع دعامات أساسية لتكوين قوة موحدة كاملة تستطيع أن تمتلك جميع الحواس :

فالدعامة الأولى : هى تزيين الوجه ، والدعامة الثانية هى تزيين الصدر ، والدعامة الثالثة ، هى استعمال أدوات الزينة لليد والقدم . والدعامة الرابعة هى استعمال الملابس المبرقشة الألوان .

فللمرأة القبطية بالجمال غرام ، فكيف كانت تتجمل ؟ وما الأشياء التى تزين بها وجهها وبدنها ؟ أو ما أدوات زينة المرأة فى العصر القبطى ؟

فكرت المرأة القبطية فى تزيين وجهها ، فاستعملت « الإثمد » (الكحل) لعينيها ، وغرام القبطيات بالكحل يدل عليه ذلك العدد الوافر من المكاحل : فعلى سبيل المثال مكحلة رقم ٥٨٤٣ بالمتحف القبطى ، وهى على شكل عمود ومصنوعة من البرونز ، أو مكحلة رقم ٥٨٥٤ بالمتحف القبطى وهى على شكل إناء صغير ومصنوعة من الزجاج ، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادى .

ومع بُعد هذا العصر مازال إلى يومنا هذا تستعمل بعض القرويات المصريات هذه المكاحل لعينيها .

كذلك استعملت المرأة القبطية الأمشاط ودبابيس الشعر لتجميل

الشعر : فعلى سبيل المثال مشط رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطى المصنوع من العاج ومنقوش عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، وبجانب السرير خادمة تحمل طفلاً . ولا يمكن أى عقل ترجيح الحكم بأن هذا المنظر وماعليه من نقش يشير إلى شىء من الدين مطلقاً ؛ لأن تاريخه يرجع إلى القرن الرابع الميلادى : أى بعد المسيحية بمايقرب من أربعة قرون .

ثم لدينا مشط آخر رقم ٥٦٥٥ بالمتحف القبطى يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادى ومصنوع من العاج أيضاً ومنقوش عليه رسم يمثل وقوف السيد المسيح على قبر اليعازر فهذه الصورة دينية . ولكنها وضعت على مشط ، والمشط ليس من الدين فى شىء ، وإنما هو من أدوات الزينة الدنيوية . وبالرغم من أن هذا المشط وسابقه من أواخر القرن الرابع للميلاد فإنهما يشبهان كل الشبه مشط عصر مصر الفرعونية . ومشط اليوم المعروف عند العامة « الفلاية » .

وكذلك عثر المنقبون على أقراط تعلق فى الآذان : بعضها على شكل مستدير أو « بيضاوى » إلى غير ذلك من مختلف الأشكال ويتدلى من بعضها سلاسل على شكل حبات من الخرز . وقد وُجدت فى حفائر مصلحة الآثار المصرية جهة الواحات البحرية أقراط على شكل عنقود ومؤرخة فى القرن الرابع الميلادى ومصنوعة من الذهب .

ونحن إذا زرنا متاحف أوربا وكذلك المتحف القبطى وجدنا مجموعات مختلفة من أدوات زينة الطيور كالعقود على أشكال متنوعة ومصنوعة من مختلف المعادن والأحجار ، ومنها مايشابه عقود مصر الفرعونية من بعض نواحى الشكل.

هذا من جهة الدعامتين الأولى والثانية . أما الدعامة الثالثة وهى أدوات الزينة لليد والأصابع والقدم فهى الأساور والخواتم والخلاخيل إلى غير ذلك . وقد وجدت مجموعات متعددة بعضها من ذهب أو فضة وغيرها من عاج أو عظم إلى غير ذلك من مختلف الأنواع والأشكال . وهى لاتخالف مايماثلها من آثار العصر الفرعونى ومايماثلها من أدوات زينة العصر الحاضر فى شىء يذكر.

والدعامة الأخيرة يكفى مايلاحظ من زركشة فى الملابس المعروضة فى متاحف إيطاليا وألمانيا وروسيا ، وكذلك المتحف القبطى وبعض نقوش مرسومة على الصناديق المصنوعة من العاج الملونة أو النقوش التى على الجدران . وقد وصلتنا أقمشة كثيرة كان يلبسها عامة الناس فى حياتهم أو يكفنون بها موتاهم .

أضف إلى تلك الدعامات أوانى كثيرة للمواد العطرية فى متاحف العالم وفى المتحف القبطى . ويرجع تاريخها إلى القرنين الخامس والسادس .

مما تقدم يستنتج أن الزينة الجسدية وأدواتها بأشكالها المختلفة وأنواعها المتعددة هى لمحض الجسد ، ولاعلاقة لها بالدين ، وفى هذا دليل قاطع على أن الفن القبطى ليس خلواً من الأثر الدنيوى ، فالفن القبطى يمثل المشاعر الدنيوية إلى جانب المشاعر الدينية ، فهو فن للدين والدنيا معا .

فن النقش على الخشب والتطعيم

وفيما عدا النسيج وفن النحت على الحجر ازدهرت بمصر صناعات فنية أخرى كفن النقش على الخشب والعاج وفن التطعيم .

وقد نبغ الأقباط فى فن النقش على الخشب كأجدادهم قدماء المصريين ، فازدهر بمصر فن صناعة نقش التحف الخشبية وتطعيمها .

ومن تلك التحف نجد منظر دخول المسيح أورشليم .

ونجد دقة فى هذا النقش الذى كان فى كنيسة المعلقة القديمة ، ثم نقل إلى المتحف القبطى ، ويرجع تاريخه إلى أواخر القرن الرابع الميلادى . وهذا المنظر هو الذى نسميه اليوم بأحد الزعف .

ويظهر جليًّا التقدم الذى أحرزه النقش على الخشب فى باب كنيسة الست بربارة الذى يرجع تاريخه إلى أوائل القرن الخامس الميلادى . وعليه نقشُ السيد المسيح والحواريين على جانب ، وعلى الجانب الآخر نقش العنب وأوراقه .

ومن تلك التحف الخشبية ما تراه فى الكنائس والأديرة من حشوات خشبية عليها رسوم تضم أشكالاً هندسية كالمربعات والدوائر أو رسوماً .

وكثيراً من هذه التحف الخشبية مطعم بالعاج أو أبواب مطعمة بالعاج ومحلاة أحياناً بصور القديسين وأشكال الصليب المختلفة .

وكذلك نجد على بعض القطع الأثرية الخشبية بعض المناظر الدنيوية كمنظر نهر النيل الخالد من طيور وأسماك ونبات البردى وقطع أخرى حفر بالخشب عليها مناظر المراكب فى نهر النيل ، وكذلك التمساح . والنيل بلا شك قوام حياة مصر وقلبها النابض فى كل العصور قديماً وحديثاً .

النحت على الحجر

الفن القبطى ننظر إليه من نواح أخرى غير الرسم والتصوير . منها فن النحت على الحجر .

وقد اهتم الأقباط باستخدام الأحجار بمختلف أنواعها وخصوصاً الحجر الجيرى . فأجاد الفنان القبطى الحفر على الحجر وزينه بنقوش ترمز إلى قصص دينية وثنية تعرف بفترة فجر الفن القبطى . وعلى سبيل المثال : الأحجار التى نُحتت على شكل محارة وفى وسطها بالحفر البارز إلهة الحب والجمال إلى موضوعات مسيحية كالمسيح بين الملائكة أو إلى رموز مسيحية كالصليب . ويظهر الصليب فى كثير من الأحيان منحوتاً أو منقوشاً أو مرسوماً على هيئة علامة الحياة المصرية القديمة .

وقد اقتبس الفنان القبطى المسيحى هذا الرمز من الفن المصرى القديم ، وذلك لأن علامة الحياة « عنخ » عند المصريين القدماء تعنى الحياة ، وتطورت هذه الكلمة فى اللغة القبطية وأصبحت تنطق « أونخ » ولكنها احتفظت بنفس المعنى الأصلى وهو « الحياة » . وهى تشبه إلى حد كبير علامة الصليب فى العهد القبطى المسيحى ، لذلك استخدمها الأقباط الأوائل منذ بدء إيمانهم بالمسيحية فى أعمالهم الفنية فى النحت والرسم على شواهد القبور (صورة رقم ٨) .

وقد استمر استعمال العناصر القبطية المسيحية فى الفن القبطى إلى ما بعد دخول العرب مصر .

كما اهتم الفنان القبطى بنحت الرسوم التى ترمز إلى معانٍ مادية دنيوية على الأحجار ، لتظهر لنا ما تحويه البيئة المصرية من نباتات وطيور وحيوان أو فواكه ، كما نَحَتَ الرسوم الهندسية .

فنجد على سبيل المثال وجهة بابٍ من باويط (قرب منفلوط) من الحجر الجيرى على شكل نصف دائرة ، وقد زخرفت برسوم هندسية وزخارف ثمار الرمان الذى لا يزال من أحسن فاكهة منفلوط حتى الآن . ولا ننسى البائع الذى يصيح ويقول : (منفلوطى يا رمان) .

وهذا يدل على ارتباط الشعب المصرى قديماً وحديثاً وفى مختلف العصور بخواص البيئة الشعبية المصرية ، إذْ إن أحسن نوع من الرمان ينسب إلى الآن إلى بلدة منفلوط .

وكذلك نجد فى فن النحت على الحجر فى الكنائس الأثرية والأديرة القبطية أكثر من تاج عمود يظهر فيها عوامل التقليد الدنيوى وتسجيل الحياة اليومية فى ذلك العهد :

١ - إذ نبصر تيجان أعمدة من الحجر مجدولة على شكل السلال ، وهى تشبه إلى حد كبير تلك التى ما زالت متداولة حتى اليوم والمصنوعة من القش .

كذلك تمثال كنائس الأديرة القبطية بما تحتويه من أعمدة حجرية

أو رخامية . وأحياناً جرانيتية تنتهى بتيجان مزخرفة :

٢ – إما بوحدات نباتية مثل الأكانتس أو سعف النخيل أو عناقيد العنب وأوراقه (صورة رقم ٢) أو على شكل الكرمة وفروعها وأوراقها .

٣ – أو بوحدات هندسية مختلفة الأشكال .

٤ – أو بزخارف متعددة ومتكررة فى نظام هندسى جميل .

٥ – أو زخارف ناتجة من التفريعات كالمصنوعة إلى حد ما على شكل سعف النخيل .

ونشاهد فى متاحف العالم المختلفة وكذلك المتحف القبطى تيجاناً لأعمدة من الحجر الجيرى ، كذلك نجد فى الكنائس القديمة منابر من الأحجار مزخرفة بنقوش بوحدات نباتية أو هندسية (صورة رقم ٩) .

فن صناعة لعب الأطفال

كانت طبيعة الإنسان المصرى فى اختراع بعض اللعب وأدوات التسلية للأطفال الصغار كبيرة .

فلم ينس الأقباط الاهتمام بأولادهم . فخلفوا من ضمن ما خلفوا فى فنهم الشعبى لعباً مختلفة الأشكال . مما كان يتخذه أولادهم منها ملهاة لهم وكجزء من وسائل التربية . فنجد فى المتاحف الأثرية المختلفة أمثلة كثيرة من لعب الأطفال من العصر القبطى ، فمثلاً فى متحف هانوفر بألمانيا الغربية نجد أرجوحة على شكل حصان من البرونز . أو عرائس على عجلات صغيرة حتى يمكن جرها ، أو عرائس من الفخار متعددة الألوان وتشبه إلى حد كبير عرائس المولد فى عصرنا الحديث .

ومن الألعاب المعروفة عندنا والتى يفضلها الأطفال فى الريف لعبة الكرة وهى معروفة حتى اليوم . واسمها القبطى القديم « سنو » ، لأن لفظ « سنو » ويعنى « اثنين » . أى أن اسم اللعبة يعنى « الثانية إلى الوراء » .

فلسفة الجمال فى الفن القبطى :

كان من أهم مظاهر الفن القبطى البساطة ، لأنه أخذ طابعاً شعبياً من البيئة المصرية يخالف فنون القصور ، وهذه البساطة التى يمتاز بها

الفن القبطى نجد لها جذوراً فى الفن المصرى القديم : أى أن هذه البساطة إنما تعبر عن طابع فنى عميق وأصيل ؛ فالبيئة المصرية ساعدت على ذلك منذ أقدم العصور ؛ فسماء مصر صافية أغلب أيام السنة ، كما أن أرضها الزراعية منبسطة ، ونيل مصر الخالد ينساب فى هدوء فى غير أمواج صاخبة كمعظم أنهار العالم .

ولهذا فبساطة الخطوط واستقامتها هى الطابع الغالب فى الفن القبطى .

فالفن القبطى بسيط كل البساطة ، وما البساطة إلا نوع من الأصالة والجمال .

وقد استمد الأقباط الروح الفنية لديهم إلى جانب المعانى القومية من الروح الدينية أيضاً التى من أهم أصولها الاعتقاد بوحدانية الله وحدانية مجردة من كل تعقيد ، ومن ثم كان الفن لديهم تعبيراً عن هذه العقيدة ذات المعانى الروحية .

الخاتمة

يبدو لنا من كل ما تقدم من الأمثلة الكثيرة والأدلة المختلفة التى بيناها فى هذه اللمحة السريعة عن الفن القبطى نستطيع أن نؤكد أن الفن القبطى له طابع شعبى مصرى دنيوى إلى جانب الطابع الدينى ، ويتفق اتفاقاً تامًّا وحياة الشعب المصرية القديمة والفن الشعبى الحديث .

ومن الطريف أن نذكر أن الفن القبطى صورة من صور الفنون المصرية فى عصر من عصورها المتطورة ، وأن له طابعاً شعبياً خاصاً من أصالة وعمق وروحانية .

غير أن هذا الفن القبطى تطور وأصبح فناً عالمياً وأثر تأثيراً مباشراً فى حضارة أوربا وفنونها فى عصر من عصور نهضتها . وظهر هذا الأثر فى فنون بلاد كثيرة كإيطاليا وألمانيا وهولندا وسويسرا والدانمارك والسويد وفنلندا ويوغسلافيا وبلغاريا وإسبانيا وروسيا وأيرلندا والنمسا . وكذلك فى بعض البلاد الآسيوية كتايلاند والهند وبعض البلدان الأفريقية كالكاميرون وغانا وأثيوبيا .

وهذا التشابه بين بعض فنون هذه البلاد وفن مصرنا العزيزة يدل على الصداقة القوية التى كانت وما زالت تربط بلدنا بشعوبهم منذ أقدم العصور ، وكذلك على قوة شخصية فننا القبطى الشعبى المحلى الذى امتاز بصفة عامة بمميزات أهمها :



صورة رقم (١ - أ)

أولا : فن شعبى .

ثانياً : فن دينى ودنيوى .

ثالثاً : فن جمال لا ضخامة .

رابعاً : فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها .

خامساً : وأخيراً امتاز الفن القبطى ببساطته ، وما البساطة إلا نوع من الجمال .

صورة رقم (٢)

أحد تيجان أعمدة دير القديس أرميا المعروض بالمتحف القبطي



صورة رقم (١ - ب)

حفر النبات والطيور والحيوان والأشكال الهندسية على الأحجار



صورة رقم (٣)

تاج عمود من الحجر عليه نقش على شكل سلة



صورة رقم (٤)

كان القبطى القديم حريصاً على التعبير عن الظواهر الطبيعية



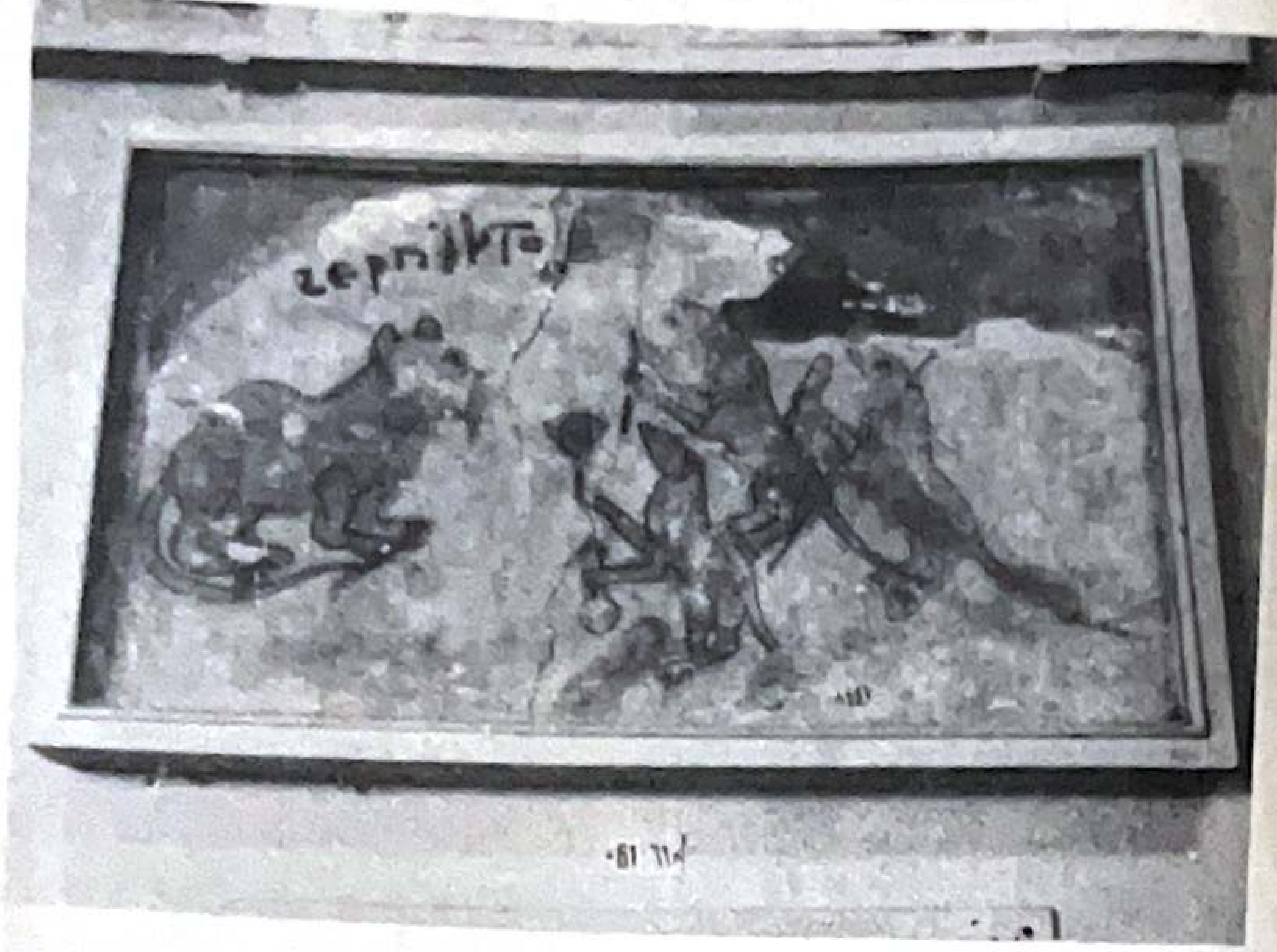
صورة رقم (٥)

منظر لصيد الغزال محفور على حجر جيرى



صورة رقم (٦)

منظر إفريز من الحجر الجيرى يمثل جنى وتجميع محصول العب



صورة رقم (٧)

منظر النيل منقوش على خشب

صورة رقم (٨)

علامة الحياة – علامة الصليب المقدس – على شواهد القبور



صورة رقم (٩)

منبر من الحجر فى إحدى الكنائس القديمة مزخرف بوحدات نباتية وهندسية

المراجع العربية

ثروت عكاشة : الفن المصرى الجزء الثالث دار المعارف .

مرقس سميكة : دليل المتحف القبطى (الجزء الأول) .

مرقس سميكة : دليل المتحف القبطى (الجزء الثانى) .

باهور لبيب : دليل المتحف القبطى (الجزء الثالث ١٩٥٤) .

باهور لبيب : لمحات من الدراسات المصرية القديمة ١٩٤٧ .

باهور لبيب ودكتور محمد جماد : لمحات من الفنون والصناعات الصغيرة والآثار المصرية - (الطبعة الثانية ١٩٦٨)

باهور لبيب : العصور المسيحية الأولى - فى محيط الفنون الجزء الأول من صحيفة ١٤٩ دار المعارف .

باهور لبيب : الفن القبطى فى الكتاب السنوى الأول لجمعية الفنون الجميلة سنة ١٩٧١ .

زكى محمد حسن : التأثيرات القبطية فى الفن الإسلامى سنة ١٩٣٧ .

فيكتور جرجس عوض الله : اللوحات المصورة ١٩٦٥ .

المراجع الأجنبية

Otto Meinardus, Monks and Monasteries of the Egyptian Deserts 1961.

Pahor Labib, Coptic Gnostic Papyri, 1956.

Pierre de Bourgnet, L'Art Copte, Paris 1967.

Kaptische Kunst, Christentum Am Nil, Villa Hügel, Essen, 1963.

فهرس

صدر من هذه السلسلة :

١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د. فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الانسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د. زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د. محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د. توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د. محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د. عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د. أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د. مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د. نبيلة إبراهيم سالم
١٤م – عيون تكشف المجهول	د. محمد عبد الهادى
١٥ – الحضارة	د. أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ – المساواة فى الإسلام	د. محمد بديع شريف
١٨ – القصة القصيرة	د. سيد حامد النساج
١٩ – عالم النبات	د. مصطفى عبد العزيز مصطفى
٢٠ – العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد
٢١ – السينما فن	صلاح أبو سيف

٢٢ – قناصل الدول	أحمد عبد المجيد
٢٣ – الأدب العربى وتاريخه	د. أحمد الحوفى
٢٤ – الكتاب والمكتبة والقارئ	حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية	د. سلوى الملا
٢٦ – طبيعة الدراما	د. إبراهيم حمادة
٢٧ – الحضارة الإسلامية	د. على حسنى الخربوطلى
٢٨ – علم الاجتماع	د. فاروق محمد العادلى
٢٨م – روح مصر فى قصص السباعى	حسن محسب
٢٩ – القصة فى الشعر العربى	ثروت أباظة
٣٠ – العمارة الإسلامية	د. كمال الدين سامح
٣١ – الغلاف الجوى	د. يوسف عبد المجيد فايد
٣١م – محمود حسن إسماعيل	د. عبد العزيز الدسوقى
٣٢ – التاريخ عند المسلمين	محمد عبد الغنى حسن
٣٣ – الخلق الفنى	د. مصرى عبد الحميد حنوره
٣٤ – البوصيرى المادح الأعظم للرسول	عبد العال الحمامصى
٣٥ – التراث العربى	عبد السلام هارون
٣٦ – العودة إلى الإيمان	أحمد حسن الباقورى
٣٧ – الصحافة مهنة ورسالة	د. خليل صابات
٣٨ – يوميات طبيب فى الأرياف	د. الدمرداش أحمد
٣٩ – السلام وجائزة السلام	عثمان نويه
٤٠ – الشريعة الإسلامية	المستشار عبد الحليم الجندى
٤١ – ثقافة الطفل العربى	جمال أبو رية
٤٢ – اللغة الفارسية	د. محمد نور الدين عبد المنعم
٤٣ – حضارتنا وحضارتهم	د. عبد المنعم النمر

٤٤ – الأمثال الشعبية	محمد قنديل البقلي
٤٥ – التعريف بالاقتصاد	د. حسين عمر
٤٦ – المستوطنات اليهودية	حسن فؤاد
٤٧ – بدر والفتح	محمد فرج
٤٨ – الفلسفة والحقيقة	د. عبد الحليم محمود
٤٩ – الطب النفسي	د. عادل صادق
٥٠ – كيف نفهم اليهود	د. حسين مؤنس
٥١ – الفن الإذاعي	د. فوزية فهيم
٥٢ – الكتابة العربية	محمد شوقي أمين
٥٣ – مرض السكر	د. أحمد غريب
٥٤ – شوقي أمير الشعراء .. لماذا ؟	فتحي سعيد
٥٥ – الفلسفة الإسلامية	د. أحمد عاطف العراقي
٥٦ – الشعر في المعركة	حسن النجار
٥٧ – طه حسين يتكلم	سامح كريم
٥٨ – الإعلام ولغة الحضارة	د. عبد العزيز شرف
٥٩ – تاجور شاعر الحب والحكمة	علي شلش
٦٠ – كوكب الأرض	د. فرخندة حسن
٦١ – السير الشعبية	فاروق خورشيد
٦٢ – التصوف عند الفرس	د. إبراهيم شتا
٦٣ – الرومانسية في الأدب الفرنسي	د. أمال فريد
٦٤ – القرآن وحياتنا الثالثة	محمود بن الشريف
٦٥ – التعبيرية في الفن التشكيلي	د. نعيم عطية
٦٦ – ميراث الفقراء	فؤاد شاكر
٦٧ – العمارة والبيئة	المهندس حسن فتحي

٦٨ – قادة الفكر الاقتصادي	د. صلاح نامق
٦٩ – المسرح الغنائي العربي	محمود كامل
٧٠ – الله أم الطبيعة	د. يوسف عز الدين عيسى
٧١ – بحر الهواء الذي نعيش فيه	د. مدحت إسلام
٧٢ – الأدب الفرنسي في عصر النهضة	د. رجاء ياقوت
٧٣ – الحرب ضد التلوث	رجب سعد السيد
٧٤ – القصة والمجتمع	يوسف الشاروني
٧٥ – المنتظرون الثلاثة	عبد الله الكبير
٧٥م– محمود أبو الوفا	فتحي سعيد
٧٦ – العسكرية الإسلامية	لواء / جمال الدين محفوظ
٧٧ – النفايات الذرية	د. محمد عبد الله بيومي
٧٨ – الإعلام والنقد الفني	د. أحمد المغازي
٧٩ – المسرح الأمريكي	د. عبد العزيز حمودة
٨٠ – زحف الصحراء	د. محمد فتحي عوض الله
٨١ – مشاكل الطفل النفسية	د. كلير فهيم
٨٢ – الأدب التركي	د. حسين مجيب المصري
٨٣ – مضادات الحيوية	د. محمد صادق صبور
٨٤ – الرواية الإنجليزية	د. إنجيل بطرس
٨٥ – الضحك فلسفة وفن	جلال العشري
٨٦ – الاستثمارات الأجنبية	د. عبد الواحد الفار
٨٧ – لغتنا الجميلة	فاروق شوشة
٨٨ – الحرب عند العرب	د. عبد الرحمن زكي
٨٩ – لئلا تحترف البكاء	نشأت التغلبي
٩٠ – الإسلام وروح العصر	د. حسين فوزي النجار

٩١ – التراث الشعبي	د. عبد الحميد يونس
٩٢ – علم النطق	د. محمد مهران
٩٣ – القلب وتصلب الشرايين	د. رجب عبد السلام
٩٤ – فن الخزف	سعد الخادم
٩٥ – الإعجاز القرآني	د. محمد أحمد الغرب
٩٦ – سفراء النبي	د. مختار الوكيل
٩٧ – ساعة مع القرآن العظيم	د. عبد العظيم المطعني
٩٨ – لغة الصحافة المعاصرة	د. محمد حسن عبد العزيز
٩٩ – الكيمياء الصناعية	د. محمد الخلوجي
١٠٠– الدراما الأفريقية	علي شلش
١٠١– وكالات الأنباء	شفيق عبد اللطيف
١٠٢– الحدوتة والحكاية الشعبية	محمد فهمي عبد اللطيف
١٠٣– ألف باء السياسة	د. أحمد حمدي محمود
١٠٤– تطور الشعر في الغناء العربي	غطاس عبد الملك
١٠٥– الحرب الإلكترونية	عبده مباشر
١٠٦– البطل في القصة المصرية	حسن محسب
١٠٧– عجائب الحشرات	د. محمد طلعت الأبراشي
١٠٨– الإذاعة خارج الحدود	أنور شتا
١٠٨م– مصر الخضراء	د. فاروق الباز
١٠٩ – القانون الطبيعي وقواعد العدالة	عبد السميع الهراوي
١١٠ – فن التصوير السينمائي	أحمد الحضري
١١١ – الطـاقة	د. محمد فتحي عوض الله
١١٢ – الفن والمرأة	شريفة فتحي
١١٣– نظام الحكم في الإسلام	د. مصطفى كمال وصفي

١١٤ – رحلتي مع الرواية	فتحي أبو الفضل
١١٥ – التطـور	د. مي فريد
١٢٦ – الأدب والمواطن	عباس خضر
١١٧ – آفاق جديدة في التعليم	د. طلعت حسن

الكتاب القادم

اجتماعيات التنمية

د. محمد الكردى

رقم الإيداع	١٩٧٨/٢٦٠٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٢٣١ - ٧

٢٢/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هـذا الكتاب

يمثل الفن القبطى الحلقة الثانية من السلسلة القومية الطويلة التى يتكون منها الفن المصرى وهى الفن الفرعونى والفن الإغريقى الرومانى ، والفن القبطى ، والفن الإسلامى .

وهذا كتاب يعالج تأثير البيئة المصرية على الفن القبطى الشعبى . والعمارة بقسميها الدينى والدنيوى . وكذلك الفنون الدقيقة كالنسيج والتصوير وفن النحت .

٥٠٧٣١/١

٥٠ م